

استراتيجيات الديمومة والإقصاء بين الذاكرة والتمرد في الخطاب القرآني

نور صبر عاشور زاهر عبدالحسين العاشقي

nour.sabor@iku.edu.iq

كلية الإمام الكاظم (عليه السلام) / قسم اللغة العربية

الملخص

يناقش البحث موضوع الذاكرة والتمرد بناء على الإطار التحليلي الذي وضعه (ميشيل فوكو)، إذ تؤدي الآليات الفوكوية دوراً مهماً في تحديد طبيعة الخطاب المقبول من عدمه في المجتمع، وتعمل كل آلية من الآليات على تحليل خطابي معين (الأرشفة) و (الأبستيم) عند ربطهما بمصطلحي الذاكرة والتمرد في الخطاب القرآني يقدمان بعداً تحليلياً لكيفية تعريف الحقيقة (المعرفة) لهذين المصطلحين تاريخياً، بينما تقدم آليتا (البيان) و (التابو) بعداً توضيحياً عن طبيعة القيود الاجتماعية المتحركة في التعبير الخطابي، ليأتي (الجنون) عبر أمثلته التي يتم إقرارها واعتمادها خطابياً بوصفه كاشفاً عن طبيعة الممارسة السلطوية المتحركة بالعقلانية من عدمها، (الحقيقة) بوصفها آلية من آليات إنتاج الخطاب - بحسب فوكو - هي ناتج السلطة المتحركة بإقرار المعرفة، إذ يدور الخطاب في الذاكرة والتمرد بين حفظ ما يعزز السلطة وشجب ما يتحداها.

الكلمات المفتاحية: القرآن ، الديمومة ، الإقصاء ، الذاكرة ، التمرد

The strategies of permanence and exclusion between memory and rebellion in the Qur'anic discourse

Nour Sabr Ashour Zahir Abdul-Husain Al-'Ashiqi

Imam Al-Kadhim College (peace be upon him) / Department of Arabic Language

Abstract

The research discusses the topic of memory and rebellion based on the analytical framework established by Michel Foucault, as Foucaultian mechanisms play an important role in determining the nature of the discourse that is acceptable or not in society, and each mechanism works on a specific discursive analysis. The archive and the episteme, when linked to the terms memory and rebellion in the Qur'anic discourse, provide an analytical dimension of how truth (knowledge) defines these two terms historically. While the mechanisms of (statement) and (taboo) have reached an explanation of the nature of the social restrictions controlling the discursive expression, (madness) comes through its examples that are copied and issued in a different discursive manner, revealing the resistance to the authoritarianism controlling reality or not, as (truth) is a type of timing of the type of discourse - according to Foucault - it is the result of the controlling authority by definition, as the discourse is taken in memory and the rebellion is the preservation between what is necessary and the denunciation of what challenges it.

Keywords : Qur'an , Permanence, Exclusion , Memory , Rebellion

آليات ديمومة الخطاب :

يعد الخطاب في مشروع (ميشيل فوكو) ركناً أساسياً من أركان مشروعه المعرفي، وذلك لأنه يتعامل مع الخطاب بشكل يتجاوز كونه أداة تعبيرية أو تواصلية فقط، فهو ينظر إليه بوصفه كاشفاً معرفياً ومؤشراً بارزاً فيما يمكن التفكير فيه أو قوله في مدة زمنية محددة (ميلز، 2012م)، ومن أجل كشف بنية هذا الخطاب وقراءة طبيعة تفاعل السلطة بالحقيقة (المعرفة) طوّر (فوكو) ثلاث آليات مركزية تؤثر لأسباب ديمومة الخطاب وبقائه في أي جماعة إنسانية، وهي:

أولاً-الأرشيف:

يعد هذا المصطلح أحد أهم المصطلحات التي يعتمد عليها (فوكو) عند تنظيره للخطاب، إذ يعني به محددات الخطاب، أو موجهاته، وهذا المصطلح متعلق مع عنوان بحثنا بشكل كبير من حيث اهتمامه بالذاكرة، إذ يصف (فوكو) هذا المصطلح بالقول: "أعني به مجموع الأحكام الذي يُعرف في فترة معينة وضمن مجتمع محدد بالاتي: حدود وإشكال إمكانية التعبير، حدود وإشكال المحادثة، حدود وإشكال الذاكرة، حدود وإشكال التفاعل... فينبغي النظر إلى الأرشيف بوصفه مجموعة آليات خطابية تحدد ما يمكن قوله وتحدد شكله وما يحسب بأنه جدير بالمعرفة والتذكر" (ميلز، 2012م، صفحة 77).

كما عرّفه بأنه مجموعة القواعد والأنظمة التي تحكم إنتاج وتدوين وتخزين المعلومات والوثائق في مجتمع معين، فهو يرى أنّ (الأرشيف) نظام يحدد ما يمكن قوله، وما لا يمكن قوله، وما يمكن تدوينه، وما لا يمكن تدوينه، ف(الأرشيف) لديه ليس مجرد مجموعة من الوثائق السالبة من حيث التأثير والتأثر، بل هي فاعلة في تشكيل السلطة والمعرفة في المجتمع، فالبيانات في أرشف (فوكو) هي التي تحدد الذاكرة والنسيان؛ فهي التي تعطي الصلاحية للأفكار من حيث ما يمكن الاحتفاظ به وما يمكن نسيانه، وما هو مهم وما هو غير مهم من تلك الأفكار (ميلز، 2012م، صفحة 77)،

وبناء على ذلك تأتي أهمية (الأرشيف) بوصفه أداة مهمة لفهم كيفية تشكيل السلطة والمعرفة في المجتمع، فيؤشر (الأرشيف) وفقاً لذلك إلى مجموعة القواعد والأنظمة التي تحكم إنتاج وتدوين وتخزين المعلومات والوثائق في مجتمع معين، أو ما يمكن قوله والتفكير فيه ضمن زمن معين، فهو ليس مجرد تجميع للبيانات، بل هو منظومة معرفية وسلطوية للخطاب الذي يصنف على أنه (الحقيقة) أو أنه (الكذب)، ومن هنا تأتي أهمية الأرشيف انطلاقاً من تصورها الفوكوي، إذ تتوزع هذه الأهمية عند تحليل الخطاب على ما يأتي (ميلز، 2012م، الصفحات 64-88):

1- تخزين البيانات وجمعها: فالأرشيف هو الخزانة البيانية للمعلومات والوثائق التي تعتبر مهمة للمجتمع، فهي لا تجمع إلا انطلاقاً من أهميتها عند المجتمعات الجامعة لها، وعليه يمثل هذا الجمع لبيانات محددة الذاكرة التي يجب حفظها اجتماعياً، ويعد كل ما سواها في متاهة النسيان.

2- تحديد المعرفة: فالأرشيف هو المحدد لشكل المعرفة المقبولة بناء على الذاكرة الأرشيفية المتعمدة، وأما غير المقبول فيجب أن يقع بعيداً عن المتون البيانية المؤرشفة، فالأرشيف بوصفه ذاكرة انتخابية ليس موضوعياً بل هو منحاز لمحدداته الخطابية.

3- تشكيل السلطة: إن الخطاب سلطة، وبناء على ذلك يلعب (الأرشيف) دوراً مهماً في تشكيل السلطة والمعرفة في المجتمع من خلال انتخاب طبيعة خطاب معينة، وحفظها وتخزينها وتداولها دون مجموعة خطابية أخرى، فالحضور في (الأرشيف) للخطاب ذي السلطة المسيطرة، بينما الغياب والنسيان هو مآل الخطاب المنهزم، والمتواري في هوامش الأرشيف البيانية.

وبناء على ما تقدم لا يُعد التذكر مجرد استرجاع للمعلومات، ولا يُعد النسيان فقداناً عشوائياً، بل انهما استراتيجيتان تُفعلان ضمن بنية سلطوية معرفية يكشفها التحليل في البنية الأرشيفية للخطاب بدرجة ما.

الأرشيف وتمظهراته الخطابية عند (فوكو):

إنّ (الأرشيف) في فكر (ميشيل فوكو) لا يعني مجرد مجموعة منظمة أو مؤرشفة من الوثائق أو النصوص، بل يذهب (فوكو) إلى إظهار طيف متنوع من التمظهرات التي يبرز من خلالها (الأرشيف)؛ فهو يراه بنية معرفية تحكم إمكانيات الخطاب، وشروط ظهوره، وتاريخ تحوّل، أكثر من كونه خزينة نصيا سالبا، ف(الأرشيف) لديه خطاب ذو حركة دينامية فاعلة في التذكر أو النسيان الخطابية؛ بمعنى أن هذه الأرشيف الخطابية هي التي تمنح النصوص ذاكرتها التي تبقىها على قيد الاستعمال اللساني، وبناء على ذلك فإنّ (الأرشيف) يتمظهر لديه في الأشكال الآتية:

1- الأرشيف بوصفه نظاماً منتجا للخطاب: "الأرشيف هو النظام العام لتكوين وتحول الخطابات. إنه ما يحدد ظهورها وحدودها، شروط تكرارها، وأشكال اختفائها." (فوكو، 2008م، صفحة 130)

2- الأرشيف بوصفه قانوناً لما يمكن أن يُقال: "الأرشيف هو أولاً قانون ما يمكن قوله، النظام الذي يحكم ظهور العبارات كأحداث مفردة." (فوكو، 2008م، صفحة 145)؛ فهو الامكانية الخطابية، إذ أن "الأرشيف لا يعني فقط ما يبقى، بل ما يُمكن أن يُقال، ما تسمح به شروط الوجود الخطابية في لحظة معينة" (فوكو، 2008م، صفحة 129).

- 3-الأرشفيف بوصفه شرطاً تاريخياً للخطاب: "الأرشفيف يُظهر القواعد التي تجعل الخطابات ممكنة، وتسمح بوجودها أو استبعادها. إنه ليس محفوظاً من الماضي، بل شرط إنتاج المعرفة." (فوكو، 2008م، الصفحات 129-130).
- 4-الأرشفيف بوصفه أداة في تحليل الخطابات: "تحليل الأرشفيف يعني وصف الخطاب في شكله الأرشفيفي، لا تفسيره فقط أو إسناده لمؤلف." (فوكو، 2008م، صفحة 146).

أرشفيف التمرد في القرآن الكريم:

يصور القرآن الكريم المتمردين على أنهم الرافضون للطاعة الإلهية، الممتنعون عن الامتثال لأوامره سبحانه وتعالى، وتتقلب صورهم التمردية بحسب السياق المرصود في الخطاب القرآني من السياسي إلى العقدي، ومن الفردي إلى الجمعي. ومن أبرز نماذج أرشفيف المتمردين في الخطاب القرآني:

1- إبليس: وهو المتمرّد الأول على الأمر الإلهي، إذ يُقدّم الخطاب القرآني المؤرشف إبليس بوصفه النموذج الكوني للتمرد، لا من حيث العصيان فحسب، بل من حيث تبرير العصيان وتأسيس خطاب مضاد للطاعة، ومبرر للعصيان. يقول تعالى في صورة تّورشف هذا المشهد المتمرد لإدامة الذاكرة الإيمانية ضد التمرد والنسيان: " قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (الأعراف:12)، وهذه الصورة المؤرشفة لإبليس في الخطاب القرآني لا تظهر تمرد (إبليس) في الفعل فقط، بل في رفض بنية السلطة الإلهية ذاتها، ما يبرر لخطاب متمرد مضاد للخطاب الإلهي الأسمى.

2- فرعون: وهو نموذج التمرد السياسي الذي يظهره الأرشفيف القرآني بتضخمه المرضي جامعا بين الطغيان وادعاء الألوهية، ليعزز القرآن الكريم بهذا الخطاب الأرشفيفي الذاكرة الإيمانية دافعا هذه الصورة المتمردة خارج التقبل السوي، يقول تعالى مصورا خطاب فرعون المتمرد: " فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" (النازعات:24)، فهذا الحاكم المتمرد لا تظهر صورته الأرشفيفية بوصفه حاكما ظالما فحسب، بل بوصفه سلطة تحاول إعادة إنتاج المعنى بشكل مدلس خارج إطار الحق الإلهي، ما يجعله صورة رمزية في تعارض مباشر مع طبيعة النظام القيمي القرآني ذي صورة التوحيدية الإلهية.

3- أرشفيف الجماعة المتمردة: وقد برزت هذه الصورة الأرشفيفية في القرآن الكريم عند التذكير بأقوام (نوح ع)، وعاد، وثمود، وكيف تمردوا على الخطاب الموحى على أنبيائهم، وعدم تقبلهم محاولات أنبيائهم بتعزيز ذواكرهم الإيمانية، إذ تمثلت خطورتهم الأرشفيفية هنا في تحويل التمرد إلى ثقافة جماعية تسخر من النذير الإلهي المُذكّر، وتُقصيه بأشكال عنفية متعددة.

وبناء على ما تقدم يظهر القرآن الكريم عبر هذه الاستراتيجية المؤرشفة للخطاب الإلهي والخطاب المضاد له صورة تذكيرية مستمرة لشجب النسيان، وبيان أن صورة المتمرد لا تتحصر بالأبعاد الدينية والأخلاقية فحسب، بل تتعداها إلى إمكانية قراءة هذه الصورة بوصفها جزء من (أرشفيف سلطوي رمزي) بحسب (فوكو) (فوكو، 2008م، صفحة 145)، وهذا (الأرشفيف) هو من يحدد من (الأخر)، وهذا هو الأرشفيف القرآني المتميز، بل والمعجز الذي يعرض كلا الخطابين، خطابه، والخطاب المضاد له في الوقت نفسه، بخلاف الطبيعة الخطابية البشرية التي تّورشف لخطاباتها فقط وتحذف وتتناسى الخطابات المضادة، فعلى سبيل المثال نقل الأرشفيف القرآني مطاعن المتمردين المختلفة في التوحيد والأنبياء، ونقل تبريرات تمردهم ومحاجاتهم المختلفة دون أن يخفيها أو يتجاوزها، وقد عرضها البحث سابقا بشكل مفصل، بينما الخطابات البشرية متحيزة للأرشفيف التي تحقق مصالحها وتعمل على تحاشي ذكر الخطابات المضادة، وعليه فقد أظهر القرآن الكريم صورة المتمرد ليس على الصعيدين الديني والأخلاقي فحسب كما بينا سابقا، بل في صورة تقابلية للمؤمن الذاكر الذي تعارضه الأرشفيف المتمردة، فالخطاب القرآني بأرشفيفه المعجز هو الذاكرة الإيمانية التي تؤسس سرديتها المتفوقة في مفاهيم السلطة الإلهية الحقة، وبنية الطاعة الجمعية التي تتحاشى التمرد، إذ أرشف القرآن الكريم التمرد بوصفه خروجاً عن النظام السوي، وخطراً على الجماعة.

أرشفيف الذاكرة والنسيان في القرآن الكريم:

القرآن الكريم ذاكرة إيمانية، وأرشفيف راصد للطبيعة البشرية المحتاجة للتذكير المستمر؛ فالذاكرة القرآنية هي سبيل الهداية، وإدانة النسيان المؤدي للغلبة والكفر، قال تعالى في صور تذكيرية متعددة: " وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ" (المائدة:7)، " وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (الحشر:19)، " لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (الأنبياء:10)، إن هذا الانتخاب الأرشفيفي ليس انتخاباً عفويا، بل هو خطاب متكامل يعقد الصلة بشكل محكم بين التذكر والطاعة، وبين النسيان والتمرد.

وعند التطرق إلى أبرز المعالجات الأرشيفية للنسيان المرتبط بالتمرد في القرآن الكريم يبرز النسيان صفة مهيمنة في المتمردين الذين تم الإشارة لهم سابقاً ، ومن ذلك :

1. إبليس : ذو التذكر المشوّه والنسيان الإرادي؛ فهو رفض أمر الله عن إرادة ووعي، ولم ينسه، ولكنه يعمل على تبرير موقفه المتمرد بشكل مدلس " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ " (الاعراف: 12)، و (إبليس) يوظف إرشفيف الذاكرة هنا بشكل مغالط حين يذكر بأنه من النار و (آدم ع) من الطين، ما يؤثر إلى أن حتى التذكر عند المتمرد قد ينصرف إلى العصيان ويؤول إلى عدم الطاعة، فقد حوّل (إبليس) التذكر في هذا الموضع الإرشيفي إلى آلية خطابية في التمرد، إذ تم تحويل الذاكرة هنا إلى رفض للسلطة، وهذا التحويل الخطابي متحقق متى ما خرج الخطاب المستذكر عن الأرشيف المعرفي المسموح به.

2- فرعون : ذو الرغبة في النسيان لدوافعه السلطوية؛ فتتأسي (فرعون) كان مشفوعاً بهوس التسلط، فهو نسيان سلطوي يتجاهل الرسالة والرسول، قال تعالى مؤرشفاً لهذه الصفة: " وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا " (النمل: 14)، لقد مارس (فرعون) النسيان بوصفه استراتيجية للهيمنة، فهو لم ينس بشكل فعلي، وهذا يتوافق مع فكرة (فوكو) (فوكو، 2008م، صفحة 129) عن السلطة التي تُعيد كتابة (الحقيقة) من خلال ما تُخفيه أو تتجاهله.

3-أرشيف الجماعة الناسية : يقدم القرآن الكريم صورة أرشفية للجماعات المتمردة، ومنهم: أقوام (نوح ع)، و (هود ع)، و (صالح ع) بوصفهم جماعات الذواكر المخرومة، والتي شاع فيها النسيان بوصفه فعلاً جمعياً؛ فهم متسمون بـ(نسيان الرسالة)، أو (نسيان العهد مع الله)، قال تعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ... فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " (الأعراف: 64، 59)، فتفسير قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)، أي: أنهم تائهون عن سبيل الحق " لا يبصرونه ولا يهتدون له ". (ابن كثير، 2002، صفحة 158) ، وهذا النسيان الذي يؤرشفه القرآن الكريم للجماعات الناسية ليس ضعفاً إيمانياً فحسب، بل هو خطاب جمعي متمرد ينتج ذاته من خلال هجره للوحي الإلهي، فهو الأرشيف المضاد للخطاب النبوي والذي أحضره القرآن الكريم لتعزيز الذاكرة الإيمانية ومعالجة الذواكر المخرومة؛ إذ يعيد القرآن الكريم تذكير الإنسان بمصيره الحتمي ووظيفته العبادية، كما أنه يحفظ في الوقت نفسه الذاكرة الجمعية للأمم السابقة ومواقفهم من الذاكرة والنسيان ومصائرهم التي انتهوا إليها بناء على مواقفهم من الأرشيف الإلهي، الذي هو الذاكرة الإيمانية التي تهدي للتي هي أقوم، القرآن الكريم الذي هو المضاد القيمي للنسيان إذ لا يكتفي بالسرد التاريخي للأحداث، بل يعيد إنتاجها بوصفها دروساً قيمة، وهذه هي الأهمية الأرشيفية للبيانات من وجهة نظر (فوكو) (فوكو، 2008م، الصفحات 129-130)، فالقرآن الكريم لا يحفظ التاريخ فقط، بل يوظفه ضمن شروط معرفية وسلطوية تمنح التذكر قيمته المركزية، وتوازن بين السلطة والمعرفة في الخطاب الإسلامي، ويتضح مما تقدم أن التذكر والنسيان ليسا مجرد عمليتين إنسانيتين، بل هما استراتيجيتان تُستخدمان في إنتاج المعرفة وممارسة السلطة، فالمعرفة بحسب (فوكو) (فوكو، 2008م، صفحة 149) قرينة السلطة ولذلك يكون الخطاب محدوداً بحدود الأرشيف المعرفي.

ثانياً - الأبستيم:

يعد مفهوم الذاكرة في القرآن الكريم مفهوماً مركزياً من حيث ارتباط الهداية الإلهية به، بينما يعاكس مفهوم التمرد مفهوم الذاكرة المركزي في القرآن الكريم، بوصف التمرد فعلاً مضاداً للذاكرة والإيمان، لذلك يُظهر القرآن الكريم مفهوم التمرد بتصويره انفصالاً عن النظام المعرفي الإلهي وانحرافاً عنه، وعند محاولة ربط ما تقدم بمفهوم (الأبستيم) الذي يعرفه (فوكو) بأنه: النظام الخفي الذي يحكم إنتاج المعرفة والمعاني في زمن معين (ميلز، 2012م، الصفحات 70-71)، يأتي تحليل الذاكرة والتمرد بوصفهما فاعلان معرفيان ضمن منظومتين هادفتين إلى تشكيل الوعي الإنساني وفقاً لتوجهات كل منهما، فالأبستيم وفق (فوكو) هو: "نظام من القواعد اللاواعية التي تُنتج الخطاب والمعرفة في كل حقبة تاريخية" (فوكو م.، 1189-1990م، صفحة 73)، فهو ليس مضمون المعرفة، ولكنه محددات التفكير في سياق الزمان والمكان، كما أن (فوكو) يقدم مفهوم (الأبستيم) كمفتاح لفهم أنظمة المعرفة والخطابات التي تحدد ما يُعدّ (معرفة) أو (حقيقة) في زمان ومكان معينين، وعليه يصبح السياق الزماني والمكاني شرطاً مهماً في إقرار الحقيقة أو المعرفة في الخطاب يقول (فوكو) في كتابه نظام الخطاب عن هذا الشرط: "السلطة لا تسمع الخطاب فقط، بل تنتج وتشرع ما هو مقبول قوله". (فوكو م.، 1189-1990م، صفحة 75)، وعليه يكون (الأبستيم) محدوداً بشروطه السياقية؛ فهو: ((مجموعة البنات الخطابية ككل ما تفكر به ثقافة ما. فيصنع مجموع الثقافات بنيات الأبستيم، وكما يقول (مكدونيل): إن الأبستيم يمكن أن يفهم بوصفه

أرضية للفكر الذي به ستحسب في وقت معين بعض البيانات -مثل - رؤية العالم الرومانتيكية أو رؤية العالم الاليزابيثية)) (ميلز، 2012م، صفحة 71)، فالأبستم لا يعبر عن الأفكار الظاهرة، بل عن الأنساق الخفية التي تحكم إنتاج المعرفة واللغة والمعنى. لذلك يرى (فوكو) أن كل حضارة تبني أنظمتها المعرفية الخاصة أي أبستمها الخاص، والذي يحدد بدوره ما يُقبل أو يُرفض بوصفه (حقيقة) أو (معرفة) (فوكو م.، 1189-1990م، الصفحات 73-75).

وعند قراءة الذاكرة والتمرد في القرآن الكريم عبر مفهوم (الأبستم) يتجلى عمق الخطاب القرآني الذي لم يقتصر على إصدار الأحكام أو سرد القصص، بل جاء نظاماً معرفياً متكاملاً يُعيد تعريف الحقيقة، والسلطة، والوعي، والتمرد، إذ لا يحصر القرآن الكريم الذاكرة في الوظيفة العقلية فحسب، بل يقدمها ركناً رئيساً في منظومة الهداية الحقيقية، ليأتي تقديمه للتمرد من على جهة عرضه فشلاً معرفياً ووجودياً، فالقرآن الكريم لا يكتفي بوصف الوقائع، بل ينشئ نظاماً للمعرفة السوية التي تعيد ترتيب الأشياء من حيث أقيامها وتعريفاتها الحقيقية (الرفاعي، 2015، صفحة 41 وما بعدها)، فالتمردون وفق الذاكرة القرآنية ذات (الأبستم) الأحق غير مصورين من ناحية رفضهم فقط، بل بوصفهم المصورون على البقاء داخل نسق معرفي قديم، يناقض (الأبستم) القرآني الذي يدعوهم إلى التحول إلى وعي جديد يصحح مساراتهم الوجودية.

أبستم الذاكرة في القرآن الكريم:

يقدم القرآن الكريم مفهوم الذاكرة وفعل التذكر بوصفه قيمة للوجود الإنساني، فهو يعرف الإنسان المؤمن من خلال ارتباطه بـ(أبستم) الهداية والوعي، أي الذاكرة الإيمانية الفعالة، وعليه يؤسس القرآن الكريم مفهوم الذاكرة على مبدئين اثنين، وهما:

1- الذاكرة فاعلاً إيمانياً: إذ تُقدّم الذاكرة في القرآن الكريم بوصفها طوقاً للنجاة من النسيان، وقد تطرقنا في مباحث سابقة إلى مصطلحاتها المتعددة مثل: (التذكر، والتذكر، والذاكرة، ...ألخ) بوصفهم فواعل إيمانية، قال تعالى: " فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ " (البقرة: 152)، وقال تعالى: " وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ " (الذاريات: 55)، وهنا تؤسس الذاكرة الفاعلية الإيمانية بوصفها ابتعاداً عن التردد، وإحياء للوعي الإيماني، ف(أبستم) الذاكرة الإيمانية في القرآن الكريم مشيراً إلى فاعليتها ونشاطها.

2- الذاكرة فاعلاً مقاوماً: أوضح (فوكو) عند كلامه عن الخطاب أن كل خطاب معرفي وإن كان سائداً ومنصراً فإنه ينتج مقاومته في الوقت نفسه، فقد "حاول فوكو البرهنة على أن المقاومة موجودة في مفهوم القوة: فحيثما توجد قوة توجد مقاومة" (ميلز، 2012م، صفحة 57)، لذلك يذكرنا القرآن الكريم بكيفية التعامل مع التضاد المحمول في القوة نفسها بأن لا نعلن وصولنا النهائي إلى أهداف الإيمان؛ فالإعلان النهائي بيد الغيب يوم الحساب، إذ يقول تعالى في هذا الشأن: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكَبُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكَبُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا " (البقرة: 111)، إنه إبستم تذكيري يعلن أن على المؤمن أن يبقى ساعياً للوصول ما زال في رحلته الدنيوية كي لا يغتر بإيمانه فيسقط في شباك التيه أو التمرد، قال تعالى: "وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا " (الكهف: 24)، وقال جل من قائل: "وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ " (القمر: 17).

فالذاكرة وفقاً لأبستمها القرآني تحمل عنصرين في الوقت نفسه؛ فهي تحمل عنصر القوة الإيماني، كما تحمل عنصر المقاومة، تلك المقاومة التي يتجاوز فيها الذاكرون القرآنيون العوامل السلبية المحمولة في كل قوة، فهم لا يغترون بإيمانهم بل يبقون طامحين لمراتب إيمانية أعلى، وبذلك يتجاوز (أبستم) الذاكرة القرآني عيوب السلطة (القوة) التي عرضها (فوكو) عند حديثه في الخطاب المنتصر ذي السلطة الغالبة.

أبستم التمرد في القرآن الكريم:

إنّ القرآن الكريم لا يعرض التمرد بوصفه مخالفة عملية فحسب، ولكنه يعرضه على أنه فعل معرفي مضاد للذاكرة والوعي الإيماني، أو بوصفه تناسياً متعمداً، قال تعالى: "نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ" (التوبة: 67)، وقال تعالى مذكراً بصورة المتمردين الناسين وعواقبهم: " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ " (الأنعام: 44)، فالنسيان الذي تعرضه هنا الآيات القرآنية ليس ضعفاً طبيعياً، بل إنه موقف اختياري من المتمردين المتصرفين وفق سياق معرفي (أبستم): رفض الحق، والتمسك بالهوى والسلطة، فالتمرد هنا لا يمثل المخالفة لأوامر الله فحسب، بل إنه يمثل فاعلية في نظام معرفي (أبستم) قديم يحاول مقاومة النظام المعرفي (الأبستم) القرآني الجديد الذي يعمل على تصوير المقاومين و(أبستمهم) المنحرف من خلال صور مثل: إبليس، وفرعون، وأقوام عاد، وشمود، وقريش... وغيرهم) ممن ينخرطون في حراسة الخطابات المعرفية القديمة للسلطة

الأرضية (أبو زيد، 1990م، الصفحات 87-90)، فيعمل القرآن الكريم على إعادة إنتاجهم بوصفهم رموزاً لل: (الجهل، والكبر، والتشوية المعرفي) فهم عنوانات الـ (أبستم) المتمرد في الخطاب القرآني الذي لا يكتفي بأن يصف التمرد، بل إنه يعمل على إعادة تأويله بوصفه فعلاً مضاداً للحقيقة، فالتمردون مقدمون في الخطاب القرآني وهم مصابون بالعمى المعرفي، والإنكار، والجهل، فهم منكرون على الرغم من معرفتهم الحقيقة، رافضون للتذكير والمراجعة لمواقفهم المتعنتة، قال تعالى: "فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى. سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَجْزِيهَا أَشَقَى" (الأعلى: 9-11)، فالنسيان هنا موقف (أبستم) يصير على الانفصال عن المعرفة الإلهية والبقاء في العمى الروحي المتمثل في الـ (أبستم) القديم المتعبد من المتمرد، قال تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ" (محمد: 9) في إصرار مترمض على الرفض (التمرد) المعرفي/ الإرادي، وقال جل من قائل في تعزيز صفتهم هذه: "أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجن: 23-25)، إنه (أبستم) المتمرد وهو كما يرى (فوكو) المعرفة التي تتجهجها السلطة وتتحكم في أنساقها (ميلز، 2012م، صفحة 57)، لذلك يأتي الـ (أبستم) القرآني مؤكداً على أن المعرفة الحقيقية هي الصادرة عن السلطة الإلهية.

بين أبستمى الذكرة والتمرد في القرآن الكريم:

جاء القرآن الكريم ليقبّل المفاهيم الجاهلية، حيث مجدت الجاهلية: (القوة، والجاه، والمال... إلخ)، ليؤسس بديلاً معرفياً عن تلك المفاهيم، فالقرآن الكريم نظام معرفي (أبستم) يكرس: (الحق، والتقوى، والعدل... وغيرها) من معايير القيم السوية (الجابري، 1986م، صفحة 40)، وبناء على ما تقدم يظهر القرآن الكريم المتمرد بوصفهم أصحاب (أبستم) مضاد في الخطاب والمعنى الناتج عن سلطتهم الدنيوية، بينما القرآن الكريم هو المصدر الأوحد للذكر والمعرفة والسلطة فهو الـ (أبستم) الأحق، قال تعالى: "كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" فالمتذكرون هم حصراً أصحاب العقول الراجعة بينما تغيب الذكرى بحسب هذه الذكرة القرآنية عن أصحاب العقول الخفيفة الذين هم في مسعى مستمر لقطع سلسلة الذكرى والتذكر، قال تعالى: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَكَ ؕ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ فَتُسَلِّحُهُمْ فَيُحَارِبُوا قَوْمَهُمْ فَاهْرُونَ" (الأعراف: 127) فالتمردون ساعون لاستئصال الذواكر الإيمانية التي تكشف عما هم المعرفي، وهنا نكون بين (أبستمين)، الأول: قرآني، والثاني: جاهلي متمرد، ولكل منهما منطلقاته التأسيسية، والتي هي:

1- في الأبستم القرآني:

- مصدر الذكرة: الوحي والذكر الإلهي.
- وظيفة التذكّر: الوعي، والهداية، ومقاومة الجهل.
- التمرد: رفض للحق وللأوامر الإلهية.
- النسيان: خيار إرادي/ عقوبة معرفية.

2- في الأبستم الجاهلي:

- مصدر الذكرة: السلطة القبلية والعادات الجاهلية.
- وظيفة التذكّر: خطر على النظام القائم.
- التمرد: هو الدفاع عن المصالح الدنيوية
- النسيان: هو تهميش الوعي الإيماني، والتأمل الإلهي

وبناء على ما تقدم يقدم القرآن الكريم نظاماً معرفياً (أبستمياً) جديداً يعيد تعريف المفاهيم المركزية في الحياة والكون، مثل: الذكرة، والتذكر، والنسيان... وغيرها، ليضيف عليها صبغة إيمانية، كما يقدم التمرد والمتمرد بوصفهم رموزاً للفشل المعرفي والأخلاقي فهم الرافضون للتذكر، والمختارون للنسيان فعلاً يقاومون من خلاله الحق الإلهي الأقوم.

ثالثاً - البيان:

يعد البيان الحجر الأساس للخطاب "قاطراد البيان يكمن في المحافظة على وحدته عبر وقائع متميزة للألفاظ، وفي حضوره المكرر عبر وحدة شكلية تقوم بتوظيف حقل استعمال ذلك البيان، ويفسر (دريفويس و رايبينو) ذلك بأنه بإمكان تفوهات متعددة ومختلفة أن

تؤلف بيانا منفردا، ومثال ذلك إعلان مضيف الطائرة بلغات مختلفة ومتعددة" (ميلز، 2012م، الصفحات 74-75)، فالبيان هو الوحدة التحليلية للخطاب، حيث لا تقف هذه الوحدة على المعنى اللغوي فحسب، بل تتجاوز إلى شروط التأثير والتداول والظهور، فالتقوّهات الخطابية هي المفككات التحليلية للأنظمة المعرفية بحسب (فوكو) الذي يرى أن كل بيان هو ممارسة سلطوية، فالتقوّه الخطابية ليس مجرد جملة لغوية، بل هو وحدة دلالية تؤدي وظيفة داخل خطاب معرفي معين، وشرط تفكيك التقوّهات الخطابية (البيان statement) مرتبط بالسياق، والجمهور، والمرجعية، والفاعل، وهذا وجه اختلاف البيان عن محدودية الجملة التي يدرك معناها من نحوها أو تركيبها، بينما البيان ذو بنى معرفية أوسع، فمواصفات البيان (statement) عند (فوكو) تتلخص بما يأتي (ميلز، 2012م، صفحة 71):

- البيان ليس مجرد جملة، بل هو فعل يُنتج معرفة عند تحقّق شروط معينة.
 - تحليل البيانات دائر حول: شروط التداول، والفاعل، والسياق، والجمهور.
 - كل بيان يمارس سلطة رمزية، ويعرض نفسه بوصفه الحقيقة.
- وبناء على ما تقدم يتيح لنا مفهوم (البيان) تقديم تأويلات في تحليل النصوص المتعلقة بالذاكرة والتمرد في الخطاب القرآني من حيث فهم كيفية إنتاج المعنى وممارسته للسلطة التي تدفع ببياناتها إلى الطاعة من خلال تقوّهات خطابية محددة.

بيان الذاكرة والتمرد في القرآن الكريم:

إن ربط مصطلحي الذاكرة والتمرد في الخطاب القرآني بمفهوم (البيان) يهدف إلى تحليل التقوّهات الخطابية المرتبطة بهذين المصطلحين، وكيف أسهمت البيانات الخطابية المتعلقة بهما في بناء منظومة معرفية تحكم الفهم الديني للطاعة أو التمرد المدفوعان سلطويا، فمن خلال مفهوم (البيان) يتم الكشف عن الآليات الخطابية المستعملة في النص القرآني والهادفة إلى إعادة إنتاج المعنى، وإعادة ترتيب شكل العلاقة بين الفرد والمجتمع والسلطة من خلال ذاكرة إيمانية تعمل على صياغة هوية محددة للمؤمنين، فالقرآن الكريم وإن قدم بعدا وعظما من خلال التذكير فإنه بهذا التقديم يذهب إلى تأسيس عمق معرفي (إبستمولوجي) يعيد صياغة ارتباط الفرد بالمجتمع والتاريخ والحقيقة، وعليه يقدم مفهوم (البيان) إجابات حول كيفية بناء التقوّهات الخطابية (statements) القرآنية مفاهيم الذاكرة والتمرد، وما هي مواصفات السلطة التي تمنح تلك المقولات أحييتها المعرفية، وكيف تمارس تلك البيانات الخطابية وظيفتها الانضباطية أو التحريرية (فوكو م.، 2008م، صفحة 65)، ومن خلال إجابات هذه الأسئلة يبرز الأثر الكبير للنصوص القرآنية المتسامية بالقيمة الإنسانية نحو ذاكرة إيمانية متفوقة، ويظهر الغنى المعرفي المعجز لهذا الكتاب الذي يعيد تنظيم الإنسان ويرمم فوضى تمرده.

وتتفرع التقوّهات الخطابية (Statements) من حيث علاقتها بالذاكرة والتمرد في القرآن الكريم على ما يأتي:

1- مقولات الذاكرة: وهي التي تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج معرفة (حقيقة) تاريخية وتهذيبية، إذ يستعمل القرآن الكريم الذاكرة بوصفها أداة مهمة لا لاسترجاع التاريخ بشكل محايد بل من أجل إنتاج المعنى (الحقيقة) ورأب الذواكر المخرومة بشكل يعيد ترتيب القيم فيها، قال تعالى: "وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَزَفَّكُمْ مِّنَ الْأَطْيَبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الأنفال: 26)، وقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" (الفجر: 6)، فالمقولات القرآنية التي تبدأ خطابها بـ(اذكروا)، و(ألم تر) وشبهاتها تؤسس لبعد تأديبي يصل بالذاكر إلى الضبط الإلهي والمعلل بأية الأنفال السابقة بمقولة (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الضابطة، وإلى خشية العقوبة المذكورة في الخطاب القرآني في سورة الفجر السابقة وهي تذكر بمصير (عاد)، فالذاكرة في هذا (البيان) الخطابية ليست استرجاعا ساليا للماضي، بل هي إعادة إنتاج للمعنى (الحقيقة)، وهي تأطير لشكل العلاقة الواجب تحققها مع الله مع خلال استرجاع الماضي لتلافي النسيان والوقوع في العواقب، والمحافظة على تذكر آلاء الله وأنعامه، فالبيان هنا يحضر لصياغة هوية إيمانية تشكل الحاضر عبر استذكار الماضي بوصفه وعاء للعبرة ودرعا حاميا من التمرد.

2- مقولات التمرد: وهي المقولات التي تعمل على تصوير التمرد بوصفه خلا معرفيا، إذ يحضر (البيان) القرآني التمرد ليس بوصفه موقفا معارضا فحسب، بل يصوره بوصفه خلا في إدراك الحقيقة، ومن ذلك على سبيل المثال قول المتمرّد (قارون): " إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي" (القصص: 78)، فهذه المقولة ومثيلاتها هي (بيان) متمرّد يقف بالصد من شروط (البيان) الإلهي، فهي ليست جملا بريئة، ولكنها وحدات معرفية تعمل على ممارسة المقاومة داخل النظام القرآني، وعندما يعرضها القرآن الكريم فهو ليس إحضارا لها

بمعنى إضفاء الفاعلية عليها، ولكنه يحضرها ليفكك انحرافها ويفضح نسقها الجاهلي المتمرد ضد الحق، لذلك تكتمل الآية في (قارون) بإيضاح (البيان) القرآني الذي قصّ الموقف المتمرد وعاقبته بالقول: "إِنَّ قُرُونًا مِّن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ... قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مَنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءُ وَيَكَآئُهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ آيَاتُ الْأَجْرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعِصَىٰ لِلْمُتَّقِينَ" (القصص: 78-83)، فإحضار (البيان) المتمرد وبيان عاقبته هو إعادة انتاج للمعنى (الحقيقة) من خلال شبكة نصية تعمل على إنكاء الذواكر الإيمانية وتعيد تثبيت السلطة الرمزية للنص الأحق في (بيان) إلهي متسام.

3- وظيفة البيان القرآني: إن وظيفة البيان القرآني هو إنتاج سلطة معرفية تمنع التمرد وتنتج مفاهيم الطاعة الحقّة من خلال صناعة ذواكر إيمانية فعالة، فكل مقولة (بيان Statements) سياق قول كما بينا سابقاً، ويتمثل هذا السياق في (البيان) القرآني بـ: المرجعية الإلهية المتمثلة بالوحي، وبالناطق المتمثل بالرسول، وبالمرسل إليه والمتمثل بالمجتمع، ومن خلال تفاعل هذه الأمور السياقية الثلاثة يمارس (البيان) القرآني وظيفة معرفية، وهي تعريف (الحقيقة)، وسلطوية من خلال إقرار هذه (الحقيقة) دون غيرها، ومن التمثيلات القرآنية لهذه الوظيفة البيانية قوله تعالى: " فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ " (سبأ: 19)، فالمقولة هنا وإن ذكرت بحادثة تاريخية إلا أنها تحولها إلى عبرة رمزية للفشل المعرفي الناتج عن التمرد والنسيان للأقوام الذين تم استحضار عواقبهم، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الوطن أن كل قصة أو موقف تذكيري يعاد تكراره في النصوص القرآنية المختلفة هو استراتيجية خطابية تعمل على تثبيت السلطة النصوية للذواكر المنتجة أو المعاد إنتاجها في تذكير مكرور من خلال القرآن الكريم لتعزيز القيم الإيمانية وتثبيت (البيان) القرآني في وظيفة انضباطية تذكر على الدوام بالسلطة الحقيقية ذات المرجعية الإلهية وأن كل ما يعارضها هو تمرد مذموم.

آليات إقصاء الخطاب:

من النقاط المهمة التي عرضها (فوكو) والتي لها علاقة مباشرة بموضوع دراستنا في الخطاب القرآني الخاص بالذاكرة والتمرد، هو تكلمه في (إقصاءات الخطاب) وكيف أن الحقيقة لا تعد شرعية إلا إذا تواءمت مع المتون المهيمنة للمؤسسة الرسمية، وقد تطرق إلى عنوان (إقصاءات الخطاب) في محاضراته التي ألقاها في افتتاح (الكوليج دو فرانس) سنة (1981) والمعنونة بـ(نظام الخطاب) إذ أشار إلى أن المؤسسة الرسمية تمارس ثلاثة إقصاءات على الخطابات غير المتوافقة مع توجهاتها (ميلز، 2012م، صفحة 77)،

وهذه الإقصاءات هي:

أولاً- التابو (التحريم):

وهو إضفاء الحظر على العنوانات التي ترفض المؤسسة الرسمية مناقشتها؛ بل تصدر الحقائق التي تأتي تحت عنوانها وتقصدها، ولا يقف (التابو) عند المحظورات الدينية أو الأخلاقية فحسب؛ بل هو منظومة رمزية متحركة بما يسمح التفكير فيه مما لا يجب أن يفكر فيه، أو التقرب منه، أو حتى النطق به، فـ(التابو) مصطلح "يراد به الأشخاص أو الأشياء التي يكون الاتصال بها والحديث عنها ممنوعاً وعرضة للعقاب الشديد من جانب المجتمع أو من جانب الآلهة" (مذكور، 1983م، صفحة 36)، وعليه فكل خارج عن الحدود الرمزية للـ(التابو) فهو موسوم بالتمرد وتتم معاقبته معنوياً أو مادياً؛ فالسمة "المميزة للتابو في حالة انتهاكه ليس جزاء يمليه القانون المدني، بل نائبة تصيب الفرد المذنب مثل الموت أو العمی" (لالاند، 2001م، صفحة 1421)، وهذه العقوبات هي التي يشعر بها بشكل أبرز المتمردون على المنظومات الدينية، أو ما يقع عليهم من مجتمعات تلك المنظومات بشكل فعلي أو هي التصورات المعنوية التي يسقطها أفراد تلك المجتمعات على المتمردین الذين يقومون بكسر المحرمات، فالـ(التابو) في السياق الديني يمارس وظيفة تأديبية تعمل على إقرار المفاهيم الواجب الالتزام بها وعدم خرقها، ومن تلك المفاهيم: الطاعة/ التمرد، الطهارة/ النجاسة، المقدس/ المندس، بينما تمثل الذاكرة المرجعية التي يتم اعتمادها بحفظ الأوامر والنواهي الواجب الالتزام بها وعدم خرقها، فالذاكرة ليست بنية محايدة ولكنها هوية تعمل على الضبط والتأديب حتى يصبح النسيان جرماً لا يجب اقترافه لأنه سيؤدي بصاحبه إلى التمرد وكسر التابو الذي يُمنع الاقتراب منه، ومن الأمثلة على ذلك في القرآن "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ..." (الأنعام: 152)، وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا" (النساء: 43)، وقوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ" (البقرة:35)، وغيرها من الآيات التي تمنع الاقتراب من المحرمات فضلا عن الآيات التي تستعمل لفظ التحريم بشكل مباشر، مثل قوله تعالى: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" (البقرة:173)، وقوله تعالى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (الأعراف:33) وغيرها من الآيات القرآنية التي تشكل الذاكرة الإيمانية والتي تحدد التابوهات التي يمنع الاقتراب منها أو الوقوع فيها لأن أي تعد عليها يشكل تمردا مذموما ونسيانا مجزما، فال(التابو) في النص القرآني هو نتاج النص نفسه أي نابع من الخطاب القرآني وليس من خارجه؛ ليمارس الوظيفة الانضباطية للفرد والمجتمع بعد تقديمه لمنظومة متكاملة من المحظورات الواجب عدم خرقها، والقرآن الكريم بخطابه الواضح هذا يحدد شروط الطاعة ومواصفاتها كما يبين في الوقت نفسه مواصفات التمرد والعصيان؛ فهو يعيد تنظيم العلاقات بين الفرد والمقدسات، وبين التاريخ (الذاكرة) والجماعة.

تابو التمرد بين الثورة والعصيان:

إن خطاب الذاكرة القرآنية لا يتعرض للتمرد بوصفه قيمة منغلقة على ذاتها، بل يتعامل معه بتوصيفين اثنين؛ إذ يحضر التمرد في هذه الذاكرة القيمة محمودا مرة، ومذموما مرة أخرى (غرو، 2019م، الصفحات 85-86)، والمعيار في حمده من ذمه هو مدى اتساقه مع الأوامر الإلهية، والفطرة السوية، والأعراف الصحيحة، فالأنبياء والصالحون تمردوا بالحق ضد الباطل، بل هم الأقوى في كسر تابوهات الإلحاد والإشراك والظلم والطغيان والترف، وحال تمردهم هذا هو الحالة الإيجابية في التمرد، ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني:

1- إبراهيم والتمرد الديني الثقافي: أحضر الخطاب القرآني هذا الفعل الإيجابي حين تمرد (إبراهيم ع) على الوثنية وعلى ثقافة أبيه ومجتمعه: "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ" (الأنبياء:52)، فتمرد مستهزئا (عليه السلام) باسم التوحيد على الجاهلية حتى كسر القداسة المزيفة لتلك الأوثان: "فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ" (الصافات:93).

2- موسى والتمرد الديني السياسي: تعرض الذاكرة القرآنية خطاب (موسى ع) الذي تمرد فيه على خطاب الطاغية (فرعون) في استراتيجية تذكيرية تعلن كيف أسقط الخطاب النبوي ذلك الاستبداد الديني والسياسي حتى حرر شعبه من عبودية (فرعون) واستغلاله السياسي لهم، قال تعالى: "وَأَنْخَبْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً" (الشعراء:65-67).

3- تمرد الحق على السلطة: يعرض الخطاب القرآني هذا التمرد الإيجابي في موقف الاستشهاد على المبدأ، والذي جاء ذاكرة إيمانية متمثلة بموقف (السحرة) من (فرعون) فكانت حالتهم التمردية على الطغيان التزاما شخصيا وجماعيا بالحق ودفاعا عن مبدأ صادق وإن كلفهم التعذيب والاستشهاد: "قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ. قَبْلَ أَنْ ءَأْتَنَّا لَكُمْ... فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى. قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاصِّ" (طه:71-72).

4- التمرد بالهروب: وهذا التمرد يمثل ذاكرة إيمانية قرآنية حين يحاول المؤمنون الحفاظ على دينهم من الطغاة والكافرين فهو استراتيجية للحفاظ على العقيدة بعيدا عن كل مايشوبها، وقد مارس الكثير من الأنبياء هذه الاستراتيجية للنجاة بالعقيدة، وقد أحضر الخطاب القرآني أمثلة متعددة على ذلك منها (فتية الكهف) الذين تمردوا سلميا بالهروب من القهر العقائدي والاضطهاد الديني، قال تعالى: "وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذَىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا" (الكهف:16).

5- التمرد النسوي: ومن حالات التمرد النسوية الإيجابية والتي كسرت التابو ما يحضره الخطاب القرآني ل(آسية بنت مزاحم) عند تمردها على زوجها الطاغية (فرعون)، والتي هي في قصره الذي رفضته وتمردت عليه ودعت الله سبحانه وتعالى أن يبدلها خيرا منه، قال تعالى: "وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَرَتْ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (التحریم:11).

فالتنمرد كما سبق القول ليس قيمة في ذاته بل هو مرتبط بالقياس على الاتجاه الذي يتحرك فيه، فكل تنمرد على الباطل هو تنمرد محمود، بينما يكون كل تنمرد على الحق تنمرداً مذموماً (غرو، 2019م، الصفحات 85-86)، وقد تنمرد الأنبياء والصالحون بالحق فكانوا ثواراً حقيقيين ودعاة صادقين، بينما كان تنمرد الطغاة أفراداً أو جماعات لمصالح ذاتية أو رغبات دنيوية أو كبراً وعناداً عصياناً مذموماً، وقد عرض القرآن الكريم لمظاهر تنمرد الطغاة من أجل عدم الوقوع في الخروقات التي مارسوها إذ يأتي التنكير بهم وبمواقفهم الكاسرة للتابو (تابو) في سياق الذم والوعيد بشكل متواتر وتبينا لعصيانهم، ومن ذلك:

1- كسر تابو الألوهية: وهو ادعاء بعض المتمردين أفراداً أو جماعات بأنهم آلهة أو بأنهم خالدون، مثل ادعاء (فرعون): "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ" (القصص:38)، وادعاء (النمرود بن كنعان): " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ " (البقرة:258)، أو بعض الجماعات التي ورد ذكرها في القرآن ومنها قوم (عاد): "أَتَنْبُوهُنَّ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ" (الشعراء:128-129).

2- كسر تابو العبودية والطاعة: كتمرد إبليس وأمثاله ممن لا يذعنون للأوامر الإلهية في عدم الطاعة والسجود، قال تعالى: "يَبْلِسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ" (ص:76-77)، ومثال ذلك في الجماعات قوم (سبأ) الذي أدى بهم ترفهم إلى الإعراض وعدم الطاعة، قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ" (سبأ:15-17).

3- كسر تابو الفطرة الإنسانية: وهنا يأتي قوم (لوط ع) مثالا واضحا في كسر (تابو) الفطرة الإنسانية السوية قال تعالى على لسان نبيه (لوط ع): "اتَّأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعُلَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ" (الشعراء:165-166).

4- كسر تابو الزوجية: ومن حالات التنمرد النسوية السلبية والتي كسرت التابو هو ما يعرضه الخطاب القرآني لبعض أزواج الأنبياء من المتمردات واللاتي لم ينتفعن بقربهن من منازل الوحي الإلهية فعصين وتمردن في استراتيجية تنكيرية منبهة إلى أن الصلاح من عدمه مرتين بالذاكرة المستحضرة لشروط الإيمان والمبتعدة عن التمرد والنسيان، قال تعالى: "صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ" (التحریم:10).

إن بعض الأفكار المعاصرة تحاول إعادة قراءة التابوهات التي تطرقنا إليها في محاولة لتأطيرها تحت عنوان التحرر من القيود أو مغادرة التخلف والرجعية بشكل يتعارض مع المنهج القرآني الأقوم الذي بيّن الهدى من الضلال حينما عرضها بأنها كسر للفطرة السوية، وخرق للدين القيم، وتحد للأعراف الصحيحة، قال تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ" (النحل:89).

ثانياً - الجنون:

يشكل الجنون أحد أهم الاستراتيجيات الخطابية في إقصاء المغاير والمختلف عند اتهامه بهذه الصفة، والتي تبعد المتهم بها عن التلقي الخطابى من الجماعة البشرية التي ينتمي إليها، وقد نبّه (فوكو) إلى أنه في فترات تاريخية مختلفة تم التعامل مع خطاب المجنون بوصفه لا معنى له على الإطلاق، أو إنه ذو بصيرة سماوية، ومن ضمن المصنفين بالجنون هم الذين يبدعون أفكاراً خارجة عن تصورات المؤسسة الرسمية (ميلز، 2012م، صفحة 79).

وفي اللغة يحضر هذا المفهوم تحت الجذر (جنن)؛ فـ"جَنَّ الشيء يجنه جناً: ستره. وكل شيء ستر عنك فقد جُنَّ عنك...و- جُنَّ الرجل جنونا وأجنه الله، فهو مجنون... وفي الحديث: اللهم إني أعوذ بك من جنون العمل أي من الإعجاب به، ويؤكد هذا حديثه الآخر: أنه رأى قوما مجتمعين على إنسان فقال: ما هذا؟ فقالوا: مجنون، قال: هذا مصاب، إنما المجنون الذي يضرب بمنكبيه وينظر في عطفه ويتمطى في مشيته" (ابن منظور، د.ت، الصفحات مادة (جنن): 217/3-219)، وعليه فالجنون في اللغة بمعنى ستر العقل وغيبابه، وقد صنف (فوكو) الجنون بوصفه أحد أبرز آليات إقصاء الخطاب فهو عنده كاشف مهم من كواشف آليات السلطة في إنتاج المعرفة وإقصاء المختلف، ففي كتابه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) يركز على نقطة مركزية وهي إشارته إلى عدم اهتمام المجتمعات بمعالجة الجنون بالقدر الذي عملت فيه على عزله وإقصائه وقمعه، إذ ينظر (فوكو) إلى الجنون بوصفه بنية خطابية في المجتمعات التي تستخدمه للإقصاء أكثر من كونه حالة نفسية أو بيولوجية، إذ قال: "الجنون هو ما يقصى عندما تتكلم العقلانية، وما يُربط دوماً بالخطر أو الانحراف" (فوكو م.، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، 2012م، صفحة 41)، فالجنون هو الوسم الذي ترسمه السلطة الخطابية على كل خارج على خطابها السائد، ومن هنا عرض القرآن الكريم خطابات المتمردين الذين يصفون الأنبياء بأنهم مجانيين، وما ذلك إلا لكون الأنبياء مثلاً دعوة التغيير السوية ضد الخطابات السلطوية المتمردة، قال تعالى: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ" (الذاريات: 52).

الذاكرة والتبريد بوصفهما وعيا مضادا للجنون:

في القرآن الكريم إحدى عشرة آية تشير إلى اتهام الأقوام المتمردة لأنبيائها بالجنون (عبدالباقي، د.ت، الصفحات 228-229)، وقد بين الخطاب القرآني أن هذه الاتهامات جاءت بعد أن صدح الأنبياء بدعوتهم التغييرية ضد الخطاب السلطوي المتمرد، والذي أعمل هذه الاستراتيجية الإقصائية وهي اتهام المصلحين بالجنون بعد المواجهة النبوية لخطابات التمرد بالتذكير الذي يعالج الذواكر المخرومة وينبها إلى أن التاريخ المعزز بالوحي الإلهي هو ما يجب تعاهده والتزام معايير السوية (يوسف، 2017م، صفحة 14) قال تعالى: "وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ" (إبراهيم: 5)، فالتذكير بالله هو إعادة صياغة للعلاقة الرابطة بالسلطة والطغيان ووجوب الخروج عليها، وهذا التذكير هو ما يخيف تلك السلطات الغاشمة التي تعمل على إقصاء هذا الخطاب التذكيري باتهامه بالجنون، بينما يركز الخطاب الوحياني على أن أنجع الطرق لمجابهة الطغيان والتمرد السلطوي هو طريق إنعاش الذواكر حتى يجعل الوظيفة الأهم للمصلحين كونهم مذكّرين، قال تعالى: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ" (الغاشية: 21)، فالذاكرة هنا تعبير للواقع المتمرد من خلال إيقاظ العلاقة بالتاريخ الوحياني، أما إذا حاولنا الربط بين ما تقدم وتصور (فوكو) للجنون بكونه وجها من وجوه التمرد على السلطة فإننا نجد أن الأنبياء في الخطاب القرآني هم من يمثلون هذا النوع الذي يصنف جنونا عند الطغاة من المتمردين أفرادا أو جماعات، ولكنهم -أي الأنبياء- في الحقيقة هم أصحاب الذاكرة الفعالة وهم أصحاب الوعي الذي يتجاوز كل متكلس مما هو سائد فهم الثوار على الواقع الظالم وهم المؤسسون للمشروع التحرري الإنساني ذي العقيدة السوية والأخلاق الرفيعة والوجود البناء (يوسف، 2017م، صفحة 15)، قال الله تعالى منزها بالنفي القاطع لهذه التهمة المفتراة: "مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ" (القلم: 2)، فالقرآن الكريم يبين أن هذه التهمة محض افتراء يسوقه المتمردون لفرض سلطتهم الاجتماعية أو العقيدة أو السياسية، فالإتهام بالجنون هو سلطة تريد الخروج عن الفطرة الإيمانية فتمارس من أجل ذلك هذا الاتهام ضد الأنبياء والمصلحين للمحافظة على ثبات عقائدها المنحرفة وإقصاء الخطاب الإصلاحية، ومن أبرز أماكن الخطاب القرآني الذي عرض لهذه التهمة الموجهة للأنبياء ما يأتي:

1- إقصاء خطاب (نوح ع): قال تعالى: "كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا... وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ... أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ" (الشعراء: 105-128)، وبعد هذه الدعوة العقلانية التي تريد لهم الصلاح والذاكرة السوية يأتي خطابهم الإقصائي ل(نوح ع): " فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك

إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين" (هود:27) حتى وصلوا بخطابهم الإقصائي إلى اتهامه بالجنون فقالوا: "إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّئُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ" (المؤمنون:25).

2- إقصاء خطاب (هود ع): مارس قوم (هود ع) الخطاب الإقصائي باتهامه بالسفاهة: أي خفة العقل والجنون حين دعاهم إلى الذاكرة الإيمانية التي تصلح نسيانهم وتعيدهم إلى سراط الله فما كان قولهم إلا أن " قال المأل الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين" (الأعراف:66).

3- إقصاء خطاب (شعيب ع): مارس قوم (شعيب ع) الخطاب الإقصائي نفسه والذي يتهم النبي -حاشاه- بالجنون، فالمجنون ذو كلام غير مترابط أو منطقي وهذا ما تم اتهام النبي (شعيب ع) به زورا وبهتانا فهو الموصوف بأنه خطيب الأنبياء، ولكن قومه وعلى الرغم من فصاحته وبلاغته اتهموه بذلك لإقصاء خطابه الدافع للظلم والجور بأن: " قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز" (هود:91).

4- إقصاء خطاب (موسى ع): مارس (فرعون) ذو السلطة الجائرة من أجل إقصاء خطاب الرسول (موسى ع) الإقصاء الخطابي باتهامه بالجنون، إذ " قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون" (الشعراء:27).

5- إقصاء خطاب (محمد صلى الله عليه وآله): والذي يمثل الخاتمية النبوية والذروة الرسالية يأتي خطاب قومه من المتمردين من خلال محاولة إقصاء الخطاب التوحيدي للرسول الخاتم باتهامه بالجنون -حاشاه-: " ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون" (الصفوات:36)، " وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون" (الحجر:6)، ليجيبهم رب العزة بكشف مرضهم التمرد بعد ذكر اتهامهم الباطل هذا بالقول: " أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون" (المؤمنون:70).

ثالثا - الحقيقة والزيف:

القرآن والتوجهات الخطابية الحديثة بين الحقيقة والزيف:

الخطاب القرآني ذاكرة إيمانية تؤسس بناء على البعد الديني الضمير الإنساني ذا التوجهات المتحررة من الزيف والكذب، فهو بنية خطابية تعلي شأن الصدق وتدعو إلى التماس الحقيقة من خلال تعزيز الذواكر الفعالة تلك الذواكر الراضية للتمرد الكذاب وترى الحقيقة بنية موضوعية قائمة بذاتها ومسددة بالبعد الوحياني، بينما تنطلق التوجهات الخطابية الحديثة من تأسيسات فلسفية ترى أن للحقيقية سلطات متحركة بإقرارها أو رفضها، إذ يرى (بيير بورديو) أن اللغة سلطة ولكنها سلطة مرتبطة بمتكلمها وبالمؤسسات والسياقات الاجتماعية التي تتداول هذا الخطاب اللغوي مستبعدا أن تكون للكلمات سلطة في حد ذاتها (الشبة، 2018م، صفحة 51)، وإلى ما يقارب ذلك يذهب (رولان بارت) عندما يرى أن الحقيقة سلطة يتجاوزها الإنسان مع ذاته إذ يقول: " ونحن لا نرى السلطة القائمة في اللسان، لأننا ننسى أن كل لسان هو تصنيف قمعي... بل إن داخل هذا اللسان سلطتان:-سلطة الإثبات والتوكيد القطعي، ثم الطابع القطعي للترار... فأنا سيد وعبد في الوقت ذاته: إنني لا أقتنع بتكرار ما قيل، ولا بالخلود إلى الراحة وعبودية العلامات، إنني أقول ما أكرره وأؤكد، وأنقده." (الشبة، 2018م، الصفحات 45-47)، فالحقيقة عنده غير مستقرة بل هي متذبذبة بحسب ما يتنازع الإنسان، وأما (ميشيل فوكو) فإنه يرى أن الحقيقة ليست كيانا قائما بذاته، فهي عنده منتج تحرره أنظمة السلطة والخطاب المنتصر، وأن وظيفتها دائرة حول محور الضبط الاجتماعي أو السياسي، فالحقيقة عنده لا تنفصل عن السلطة التي تقرها، فهي ناتج تفاعلات السلطة بمتلقي الخطاب، وعليه تصبح كل طبيعة اجتماعية مالكة لنظام خاص في إنتاج الحقيقة، وهذا النظام هو الذي يحدد آليات الفرز الخطابي بين ما هو حقيقة أو كذب (فوكو م.، تدبير الحقيقة، 2015)، بل إنه المحدد لمن يملك حق النطق بالحقيقة.

الذاكرة والتمرد بين شجاعة الصدق والاستحسان:

إنَّ الحقيقة ليست نقيض الكذب بل نقيضه "الصدق (Truthfulness) مثلما أن نقيض الباطل هو الحق (True) ونقيض الزيف (Falsity) هو الشيء الحقيقي (Fact)..." (الشريف، 2019م، صفحة 49)، وبما أن الصدق محايث للغة فإن الكذب محايث لها كذلك وفق التوجهات الحديثة التي ترى أنَّ الكذب ليس عدم مطابقة الواقع من حيث قول القائل بل يشترط حضور نية الكذب (فاينرش، هـرالد، 2015م، صفحة 9) لدى المتكلم فقد يكون القائل مغاير للواقع في كلامه من باب التوهم إذا لم يتوافر لديه قصد الكذب ولذلك وجب حضور الركيزة المهمة في هذا الشأن كي يوصف القول بأنه كاذب وهذه الركيزة هي النية والقصد، فالحقيقة بحسب (كريس باركر) وبحسب الحس المشترك المعاصر وفلسفة التتوير هي "وصف مطابق أو مصور للواقع داخل لغة محايدة للملاحظة... هذا يسمح لنا بأن لا نتمسك بأوصافنا للعالم ورؤيتنا كأوصاف صحيحة أو خاطئة داخل معنى المطابقة للواقع، بل إن كلمة الحقيقة من الأفضل فهمها كاستحسان اجتماعي بدلا من كونها صورة دقيقة للواقع... واللغة بمثابة أداة لإنجاز الفعل بدلا من كونها مرآة لتمثيل العالم" (باركر، 2018، الصفحات 185-186)، وهذا التصور الخطابي للحقيقة يغيّر التأسيس الخطابي القرآني للحقيقة، إذ عرض القرآن الكريم للحقيقة بمعزل عن الاستحسان الاجتماعي من عدمه، فالقرآن الكريم ضرب الأمثلة المتعددة لمجتمعات كثيرة ضمن الذاكرة التاريخية المعروضة فيه، وهي -تلك المجتمعات- تستحسن قبائح الأمور مثل الإشراك أو الشذوذ أو الظلم أو غيرها، قال تعالى:

- "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مَنْ خُلِّيَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ۖ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۚ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ" (الأعراف: 148).

- "وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَأَتَّانُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَنَعُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۚ أَنْتُمْ لَأَتَّانُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (العنكبوت: 28-29).

- "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ۖ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۚ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ" (هود: 50-60).

إنَّ مجتمعات الآيات المتقدمة استحسنّت تصرفاتها المؤشّرة في الخطاب القرآني، فهل يجعل استحسانها هذا، القيمة التي استحسنوها حقيقة قيمة؟

- كلا بالطبع، إذ أن الفطرة السوية والخطاب القرآني المؤسس لهذه الفطرة يعرض الحقيقة بوصفها تأسيسا وحيانيا، بينما مجتمعات التمرد تعيش في نسيانها المبتعد بها عن هذا التأسيس وترفض أيّ "محاولة لنقدها أو مساءلتها أو الإعلان عن ثغراتها وأخطائها وإخفاقاتها وتعصباتها وانغلاقها... وفي ضوء ما يشرحه بيير بورديو في (الهابيتوس habitus)، يمكن أن نفسر هذا الاغتراب -بأنه- بناء ذاكرة بديلة -إذ- يرى بورديو أن الإنسان ينشأ في إطار هابيتوس يتشكل من معتقدات وتقاليد وعادات ومفاهيم ورموز، فيكون إطارا عميقا للهوية والسلوك والذوق، يترسخ في البنية العميقة لشخصيته منذ الطفولة... ويعمل العنف الرمزي بخفاء على إكراه الإنسان... على نسيان ماضيه ومحو ذاكرته والاندماج ببيئته اليوم" (الرفاعي ع.، 2025، صفحة 15)، ولذلك يستعمل القرآن الكريم السرد التاريخي بوصفه منبها يعمل على إيقاظ الذواكر الناسية، وفاضحا في الوقت نفسه الوعي المزيف الذي ينتج الرسوخ في الظلم، إنه تحفيز ضد أنظمة الكذب، أو ما يطلق عليه (فوكو) في كتابه (حفريات المعرفة) نبش التاريخ لغرض معرفة كيفية إنتاج الحقائق من خلال تفكيك علاقات السلطة المنتجة لها (فوكو م.، حفريات المعرفة، 2008م، صفحة 47)، وهذا ما يفعله الخطاب القرآني حينما يعيد السردية التاريخية لبيان الزيف من الحقيقة إنه استراتيجية خطابية على مواجهة التمرد بكل جرأة وصراحة ولا سيما في وجه الطغاة والظلم وهو ما انتخب له (فوكو) مصطلح (الباريسيا parrhesia) اليوناني عند تحليله للخطاب السياسي والأخلاقي بوصفه شكلا من أشكال الشجاعة الحقّة والحرية الصادقة، فأن يجهر الأنبياء بالحقيقة وإن كلفهم ذلك حياتهم لهو المجد أمام التمرد والطغيان، قال تعالى مذكرا بهذا الموقف النبيل للرسول (محمد صلى الله عليه وآله): "فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"

(الحجر:94)، وفي (موسى ع) و (هارون ع) جاء التوثيق الإلهي لهذا الموقف بقوله تعالى: " أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِأَيْتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ " (طه:42-43)، فالحقيقة في الذاكرة القرآنية مواجهة نبيلة وفعالة، وهي تعمل على كشف الزيف المغطى بالنسيان، هذا النسيان الذي يحاول إعطاء صبغة وهمية للتمرد فيعمل على إسقاط صفة الكذب على الأنبياء والمصلحين، وهذا الاتهام يعرضه القرآن الكريم بوصفه استراتيجية تمردية لإقصاء الخطاب النبوي إذ مارسه المتمردون ضد كل المرسلين، قال تعالى: " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. اتَّوَصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ " (الذاريات:52-53)، فالساحر هو المموه الكذاب وهذا هو إقصاؤهم المتداول استراتيجية خطابية متوارثه وكأنهم تواصلوا كما تشير الآية المباركة بحفظ هذا الإقصاء الخطابي وتداوله أمة بعد أمة، فالحقيقة عند أمم المتمردين مرتبطة بالسلطة التاريخية، فهي كما بيّنا طوقسية، ومرتبطة بطبيعة المصدر المؤسساتي الذي يمنحها صفة الشرعية، ويكذب كل ما لا يتناسب مع معاييرها، وهذه هي طبيعة خطاب التمرد المعروض في القرآن الكريم، والذي يمارس إقصاءاته الخطابية المختلفة، ومنها الاتهام بالكذب على الأنبياء والمصلحين، ومن أمثلة ذلك ما قالوه زورا وبهتانا في الصادق الأمين (صلى الله عليه وآله) وعرضه القرآن الكريم لبيان هذه الاستراتيجية المتمردة ودحضها، " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَطُيَّرُ الْأَوَّلِينَ أَكُنْتُمْ فِيهِ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ " (الفرقان:4-6)، إنها استراتيجيات المتمردين الخطابية والتي تبعث الحزن في نفوس الأنبياء والمصلحين الذين يريدون الإصلاح والفوز لأقوامهم بينما تقابل تلك الأقوام المتمردة بإسقاط صفاتها ومنها الكذب عليهم، قال تعالى: " قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاءِيتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتْنَهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ " (الأنعام:33-34)، إن الذاكرة القرآنية تعدُّ بنصر المؤمنين وبخسارة المتمردين، فشجاعة الأنبياء والمصلحين بجهرهم بالحقيقة ورفضهم كل فساد يستحسنه المتمردون، وهي شجاعة الكلمة والفعل، وهي الاستراتيجية الخطابية الأبقى والأنجح.

الذاكرة والتمرد مقارنة لثنائية الحقيقة والكذب:

إن استدعاء الذاكرة القرآنية تحت عنوان الحقيقة الداحضة للتمرد والكذب تتفرع منه نتيجتان، وهما:

1- الذاكرة القرآنية تدحض الكذب بالحقيقة: إذ يستعمل الخطاب القرآني استرجاعا سرديا للحوادث التاريخية من أجل دحض الادعاءات والكذب، ومن ذلك تذكير القرآن لبني إسرائيل بسلوكهم المتمرد عند قوله تعالى: " وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ. يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَقْتُلُوا حُسْرَيْنِ. " (المائدة:20-21)، فبعد هذه الآلاء الكبرى وتذكير الله بهذه الحقائق التاريخية يذكرهم بموقفهم المتمرد وغير المنسجم مع حجم تلك الأنعام إذ أحضر الخطاب القرآني قولهم إذ " قَالُوا يُمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُذِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دُخُلُونَ ... قَالُوا يُمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنُذِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَتَقْتُلَا إِنَّا هُنَا مُّعْذُونٌ " (المائدة:22-24)، وهذا الخطاب التذكيري هو تثبيت لحقيقة تمرد بني إسرائيل المتخلين عن الأنبياء بل القاتلين لهم وهو سلوك متكرر عندهم يدحض بذكره القرآن ادعاءاتهم بأنهم الشعب المختار على ما سواهم من الشعوب، إنه إحضار لسردية تاريخية جماعية لكشف الزيف التاريخي الذي يحاول العبرانيون تمريره بوصفه الحقيقة التاريخية، فنحن هنا أمام ذاكرتين: ذاكرة مزيفة تحاول غش السردية التاريخية وهي الذاكرة العبرانية، وذاكرة حقيقية قرآنية تكشف الزيف والتمرد في السرديات المسترجعة، وفي كتاب (الذاكرة، التاريخ، النسيان) لـ(بول ريكور) تأتي الإشارة لهاتين الذاكرتين، فالأولى: " ذاكرة حقيقية تعمل على استحضار الماضي كما كان بأمانة وصدق...، وذلك يرتبط بمفهوم الشهادة عند ريكور، بما يعنيه من وفاء للتجربة الإنسانية والحقيقة التاريخية. وهذه الذاكرة تحرص على الحديث عن الوقائع التاريخية كما وقعت، والتحدث عن الشخصيات كما كانت، بعيدا عن الإضافات والتحريفات، والتأويلات المتعسفة،

وإن كانت عملية الاستنكار ذاتها تعني إعادة بناء، وهذه الإعادة لا تخلو من تأويل، غير أنه ضرب من التأويل الذي لا يزيّف. والنوع الثاني من الذاكرة ذاكرة موجهة، يجري ابتكارها وتوجيهها وفقا لمطامح إيديولوجية، كما تفعل الهويات المغلقة، عندما تعمل على صياغة الماضي لتوظيفه في مطامح تنشدها الهوية في الحاضر، وتكون منحاورة وأسيرة لصورة تحلم بها وتشدّد على خلقها، فتعتمد لانتقاء ما يجعل هذه الصورة أجمل،... وتحرص على تكريس (نحن) مقابل (هم) على الدوام" (الرفاعي ع، 2025، صفحة 15) إنهما ذاكرتان: ذاكرة الزيف الباطلة، وذاكرة الحقيقة القرآنية.

2- الحقيقة تصدع زيف السلطة المتمردة: إن القرآن الكريم يؤسس للحقيقة النبيلة، أو (البارسيا) كما أسماها (فوكو)، وهي الحقيقة الجريئة والصريحة التي لا تدهن خوفاً أو خشية من أي شيء فالمؤمنون متذكرون على الدوام " إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (يونس:62) فهم يصدعون الزيف السلطوي بالحقيقة الشجاعة والجريئة، بخلاف ما تذهب إليه بعض الاتجاهات الغربية في شرعية ممارسة الكذب الموصوف بالنبيل إذ وافقت (حنة أرندت) (أفلاطون) في الكذب النبيل الذي يُمارس لخداع العدو السياسي ومعالجة الحمقى حتى رأت أنه "مفيد لهم كما الدواء الذي يصفه الطبيب وحده" (الشريف، 2019م، صفحة 132)، وهي بذلك تشير إلى كون الحقيقة غير مقنعة في حد ذاتها لذلك فإنها تجعل من هذه الحقيقة في حيازة النخبة (الأقلية) التي تحاول على الدوام ممارسة الإقناع على الكثرة "لكن بما أن (الكثرة) تندفع دوماً إلى تصديق أي شيء غير موثوق فيه تقريبا، فإنه يمكن إقناعها بتصديق الحكايات الزائفة التي يرويها الشعراء والتي تحمل دلالات مهمة لحقيقة معينة تعرفها (القلة) وحدها" (الشريف، 2019م، صفحة 133)، وقد مال (روسو) قبل ذلك إلى هذا الرأي فالشخص الذي لا يسرد "حكاية خيالية إلا من أجل الحكاية نفسها، ليس بكاذب بأي حال من الأحوال" (روسو، دت، صفحة 132) بل إن (روسو) يشير إلى أن إخفاءنا لحقيقة لسنا ملزمين بها لا يعد كذبا (دريدا، 2018م، صفحة 19)، بينما تثبت الذاكرة القرآنية عكس ذلك إذ تركز على ضرورة قول الحقيقة ولو وقع الضرر لهذا القول على الذات أو والدين أو الأقربين، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ " (النساء:135)، ومن أمثلة الذاكرة الصاعدة للسلطة المتمردة بالحقيقة في القرآن الكريم موقف (إبراهيم ع) الجريء والمواجه بشكل متحد وشجاع والذي أحضره القرآن الكريم في قوله تعالى: " فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِم بِمَا تَكَلَّمُوا، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْأَيْمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ " (الصافات:91-98)، هذه هي الذاكرة القرآنية التي تذكر على الدوام بأن النجاة في الصدق وأن المتمردين ذوي الألسنة الكاذبة هم في الأسفلين، فالقرآن الكريم يصدع الماضي المزيف بخطاب الحقيقة وهو خطاب ذو استراتيجية بناءة في تشكيل الوعي الفردي والمجمعي، قال تعالى: " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ " (الأنبياء:18).

إن الذاكرة الإيمانية هي الوعي المضاد للتمرد والعصيان، وهي استراتيجيات خطابية بناءة ضد الاستراتيجيات التمردية المناوئة، فهي الذاكرة الخالدة والمعجزة الخطابية الكبرى والمتمثلة بالقرآن الكريم.

الخاتمة والنتائج:

- 1- التذكر ليس استرجاعاً سالباً للمعلومات، كما لا يُعدُّ النسيان فقداناً عشوائياً، بل انهما استراتيجيتان تُعلنان ضمن بنية سلطوية معرفية يكشفها التحليل في البنية الأرشيفية للخطاب بدرجة ما، وهذا ما أشره النص القرآني عند تعامل الأقوام مع الرسالات السماوية، ف(الأرشيف) خطاب ذو حركة دينامية فاعلة في التذكر أو النسيان الخطابي؛ بمعنى أن الأرشفة الخطابية هي التي تمنح النصوص ذاكرتها التي تقيها على قيد الاستعمال اللساني، أو تلقيها في دوامات النسيان.
- 2- يتميز (الأرشيف) القرآني بعرضه كلا الخطابين، خطابه، والخطاب المضاد له في الوقت نفسه، بخلاف الطبيعة الخطابية البشرية التي (تؤرشف) لخطاباتها فقط وتحذف وتتناسى الخطابات المضادة، فعلى سبيل المثال نقل الأرشيف القرآني مطاعن المتمردين المختلفة في التوحيد والأنبياء، ونقل تبريرات تمردهم ومحاجاتهم المختلفة دون أن يخفيها أو يتجاوزها، بينما الخطابات البشرية متحيزة للأرشفة التي تحقق مصالحها وتعمل على تحاشي ذكر الخطابات المضادة.
- 3- عند قراءة (الذاكرة) و(التمرد) في القرآن الكريم عبر مفهوم (الأبستيم) يتجلى عمق الخطاب القرآني الذي لم يقتصر على إصدار الأحكام أو سرد القصص، بل جاء نظاماً معرفياً متكاملًا يُعيد تعريف الحقيقة، والسلطة، والوعي، والتمرد، إذ لا يحصر القرآن الكريم الذاكرة في الوظيفة العقلية فحسب، بل يقدمها ركناً ركينا في منظومة الهداية الحقيقية، كما يأتي تقديمه للتمرد من على جهة عرضه فشلاً معرفياً ووجودياً، فالتمردون وفق الذاكرة القرآنية ذات (أبستيم) الأحق غير مصوّرين من ناحية رفضهم فقط، بل بوصفهم المصوّرون على البقاء داخل نسق معرفي قديم، يناقض ال(أبستيم) القرآني الذي يدعوهم إلى التحول إلى وعي جديد يصحح مساراتهم الوجودية.
- 4- إن وظيفة (البيان) القرآني هو إنتاج سلطة معرفية تمنع التمرد وتنتج مفاهيم الطاعة الحقّة من خلال صناعة ذواكر إيمانية فعالة، فلكل مقولة (بيان) (Statements) سياق قول محدد، ويتمثل هذا السياق في (البيان) القرآني بـ: المرجعية الإلهية المتمثلة بالوحي، وبالناطق المتمثل بالرسول، وبالمُرسل إليه والمتمثل بالمجتمع، ومن خلال تفاعل هذه الأمور السياقية الثلاثة يمارس (البيان) القرآني وظيفة معرفية، وهي تعريف (الحقيقة)، وسلطوية من خلال إقرار هذه (الحقيقة) دون غيرها.
- 5- يمارس ال(التابو) في السياق الديني وظيفة تأديبية تعمل على إقرار المفاهيم الواجب الالتزام بها وعدم خرقها، ومن تلك المفاهيم: الطاعة/ التمرد، الطهارة/ النجاسة، المقدس/ المدنس، بينما تمثل الذاكرة المرجعية التي يتم اعتمادها بحفظ الأوامر والنواهي الواجب الالتزام بها وعدم خرقها، فالذاكرة ليست بنية محايدة ولكنها هوية تعمل على الضبط والتأديب حتى يصبح النسيان جرماً لا يجب اقترافه لأنه سيؤدي بصاحبه إلى التمرد وكسر التابو الذي يُمنع الاقتراب منه.
- 6- في القرآن الكريم إحدى عشرة آية تشير إلى اتهام الأقوام المتمردة لأنبيائها بالجنون، وعند الربط بين هذا الاتهام وتصور (فوكو) للجنون بكونه وجهاً من وجوه التمرد على السلطة فإننا نجد أن الأنبياء في الخطاب القرآني هم من يمثلون هذا النوع الذي يصنف جنونا عند الطغاة من المتمردين أفراداً أو جماعات، ولكنهم -أي الأنبياء- في الحقيقة هم أصحاب الذاكرة الفعّالة وهم أصحاب الوعي الذي يتجاوز كل متكلس مما هو سائد، فهم الثّوار على الواقع الظالم، وهم المؤسسون للمشروع التحرري الإنساني ذي العقيدة السوية والأخلاق الرفيعة والوجود البنّاء.
- 7- يستعمل القرآن الكريم السرد التاريخي بوصفه منبهاً للذواكر الناسية، وفاضحاً في الوقت نفسه الوعي المزيف الذي ينتجه الرسوخ في الظلم، إنه تحفيز ضد أنظمة الكذب، أو ما يطلق عليه (فوكو) نبش التاريخ لغرض معرفة كيفية إنتاج الحقائق من خلال تفكيك علاقات السلطة المنتجة لها، وهذا ما يفعله الخطاب القرآني حينما يعيد السردية التاريخية لبيان الزيف من الحقيقة إنه استراتيجية خطابية على مواجهة التمرد بكل جرأة وصراحة ولا سيما في وجه الظلم والطغيان، وهو ما انتخب له (فوكو) مصطلح (الباريسيا parrhesia) اليوناني عند تحليله للخطاب السياسي والأخلاقي بوصفه شكلاً من أشكال الشجاعة الحقّة والحرية الصادقة، فأن يجهر الأنبياء مُذكرين بالحقيقة وإن كلفهم ذلك حيواتهم لهو المجد أمام التمرد والنسيان.

المراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم مذكور. (1983م). المعجم الفلسفي (المجلد 1). القاهرة-مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- ابن كثير. (2002). تفسير القرآن العظيم (المجلد 1). بيروت-لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري ابن منظور. (د.ت). لسان العرب. بيروت-لبنان: دار صادر للطباعة.
- أندريه لالاند. (2001م). موسوعة لالاند الفلسفية (المجلد 1). (خليل أحمد خليل، المترجمون) بيروت-لبنان: منشورات عويدات.
- جاك دريدا. (2018م). تاريخ الكذب (المجلد 2). (رشيد بازي، المترجمون) الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي.
- جان جاك روسو. (د.ت). أحلام يقظة جوال منفرد. (ثريا توفيق، المترجمون) القاهرة-مصر: المركز القومي للترجمة.
- حمدي الشريف. (2019م). فلسفة الكذب والخداع السياسي. القاهرة-مصر: رؤية للنشر والتوزيع.
- سارة ميلز. (2012م). الخطاب (المجلد 1). (غريب إسكندر، المترجمون) بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
- عبد الجبار الرفاعي. (7, 5, 2025). الهوية المغلقة تتلاعب بالذاكرة. الصباح، 15.
- عبد الجبار الرفاعي. (2015). الدين والاعتقادات الميتافيزيقية. بيروت-لبنان: دار التنوير.
- عبدالمجيد يوسف. (2017م). الجنون والنبوة دراسة في النص القرآني في ضوء فلسفة فوكو. مجلة الفكر العربي المعاصر (العدد 155).
- فاينرش، هيرالد. (2015م). اللغة والكذب. (أ.د. عبدالرزاق بنور، المترجمون) عمان-الأردن: منشورات.
- فريدريك غرو. (2019م). العصيان من التبعية إلى التمرد (المجلد 1). (د. جمال شحيد، المترجمون) بيروت-لبنان: دار الساقى.
- كريس باركر. (2018). معجم الدراسات الثقافية. (جمال بلقاسم، المترجمون) القاهرة-مصر: رؤية للنشر والتوزيع.
- محمد الشبة. (2018م). اللغة، سلسلة تحليل النص الفلسفي. الدار البيضاء-المغرب: الناشر الأطلسي.
- محمد قواد عبد الباقي. (د.ت). المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. بيروت-لبنان: مكتبة التراث الإسلامي.
- محمدعابد الجابري. (1986م). بنية العقل العربي. بيروت-لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ميشال فوكو. (1189-1990م). الكلمات والأشياء. (مطاع صفدي، سالم يفوت، د. بدر الدين عروذكي، المترجمون) بيروت-لبنان: مركز الإنماء القومي.
- ميشيل فوكو. (2008م). حضريات المعرفة. (سالم يفوت، المترجمون) الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- ميشيل فوكو. (2012م). تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي. (سعيد بنكراد، المترجمون) بيروت-لبنان: المركز الثقافي العربي.
- ميشيل فوكو. (2015). تدبير الحقيقة. مجلة حكمة.
- نصر حامد أبو زيد. (1990م). مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن. بيروت-لبنان: المركز الثقافي العربي.

References

- The Holy Qur'an. (n.d.). (Translated by M. A. S. Abdel Haleem). Oxford, UK: Oxford University Press.
- Ibrahim Madkour. (1983). *Philosophical dictionary* (Vol. 1). Cairo, Egypt: The General Authority for Government Printing Affairs.
- Ibn Kathir. (2002). *Tafsir al-Qur'an al-'Azim* (Vol. 1). Beirut, Lebanon: Ibn Hazm Publishing and Distribution.
- Ibn Manzur, A. al-F. J. al-D. M. ibn M. al-Afriki al-Misri. (n.d.). *Lisan al-'Arab*. Beirut, Lebanon: Dar Sader Publishing.
- Lalande, A. (2001). *Lalande's philosophical encyclopedia* (Vol. 1; K. A. Khalil, Trans.). Beirut, Lebanon: Oweidat Publications.
- Derrida, J. (2018). *The history of lying* (Vol. 2; R. Bazzi, Trans.). Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center.
- Rousseau, J.-J. (n.d.). *Reveries of a solitary walker* (T. Tawfiq, Trans.). Cairo, Egypt: National Center for Translation.
- Al-Sharif, H. (2019). *The philosophy of lying and political deception*. Cairo, Egypt: Ru'ya Publishing and Distribution.
- Mills, S. (2012). *Discourse* (Vol. 1; G. Iskandar, Trans.). Beirut, Lebanon: Scientific Book House.
- Al-Rifai, A.-J. (2025, May 7). Closed identity manipulates memory. *Al-Sabah*, p. 15.
- Al-Rifai, A.-J. (2015). *Religion and metaphysical alienation*. Beirut, Lebanon: Al-Tanweer Publishing.
- Youssef, A.-M. (2017). Madness and prophethood: A study of the Qur'anic text in light of Foucault's philosophy. *Contemporary Arab Thought Journal*, (155).
- Weinrich, H. (2015). *Language and lying* (A. Bannour, Trans.). Amman, Jordan: Publications.
- Gros, F. (2019). *Disobedience: From submission to rebellion* (Vol. 1; J. Shahid, Trans.). Beirut, Lebanon: Dar Al-Saqi.
- Barker, C. (2018). *The dictionary of cultural studies* (J. Belkacem, Trans.). Cairo, Egypt: Ru'ya Publishing and Distribution.
- Al-Shabba, M. (2018). *Language: Series on philosophical text analysis*. Casablanca, Morocco: Atlas Publisher.
- Abdul-Baqi, M. F. (n.d.). *The indexed dictionary of Qur'anic terms*. Beirut, Lebanon: Islamic Heritage Library.
- Al-Jabri, M. A. (1986). *The structure of Arab reason*. Beirut, Lebanon: Center for Arab Unity Studies.
- Foucault, M. (1989–1990). *The order of things* (M. Safadi, S. Yafout, & B. Aroudaki, Trans.). Beirut, Lebanon: Center for National Development.
- Foucault, M. (2008). *The archaeology of knowledge* (S. Yafout, Trans.). Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center.
- Foucault, M. (2012). *Madness and civilization: A history of insanity in the classical age* (S. Benkrad, Trans.). Beirut, Lebanon: Arab Cultural Center.
- Foucault, M. (2015). The governance of truth. *Hikma Journal*.
- Abu Zayd, N. H. (1990). *The concept of the text: A study in the sciences of the Qur'an*. Beirut, Lebanon: Arab Cultural Center.